الفصل الثامن

حصص أرباح المواطنين في شتات المهاجر

نماذج مثالية ومنبوذون من الصينيين والهنود فيما وراء البحار

في 9 من شهر كانون الثاني/يناير من العام 1915، وصل محامٍ هندي شاب جاد إلى بومباي على ظهر سفينة من جنوب إفريقية. لقد استقبله الناس استقبال بطل. وكانت حركته في جنوب إفريقية، وهي حركة ساتياغراها (وهي اللفظة السنسكريتية لمعنى "الحقيقة والثبات") قد اجتذب لها آلافًا عدة من الأتباع وجلبت له الشهرة في الهند. هذا الهندي غير المقيم كان قد قاتل بنجاح من أجل الحقوق المدنية للأقلية الهندية في جنوب إفريقية، ومن بين تنازلات أخرى، كان اتحاد جنوب إفريقية قد ألغى ضرائب معينة كانت تجبى من الهنود واعترف بالزواجات الهندية. ذلك هو موهانداس كارامشاند غاندي، الماهاتما (الروح العظيم)، الذي سيستمر ليقود القتال من أجل حرية الهند وليهيمن على السنوات الثلاثين اللاحقة من السياسة الهندية بفضل الإقناع الأخلاقي المحض.

بعد سبع وثمانين سنة، في 9 كانون الثاني/يناير من العام 2002، عقدت الهند أول اجتماع سنوي لما سمي "يوم الهنود فيما وراء البحار". وعقد هذا الاجتماع في التاريخ الرمزي تشريفاً لأبرز هندي ممن يعرفون باسم الهندي غير المقيم، وكان الاجتماع مصحوباً بحملة علاقات عامة كثيفة قصد منها أن تصل بعيداً إلى الهنود غير المقيمين المعاصرين، وكان يعني أن يُدَشِّن تقديراً تأخر عن ميعاده في الهند لمواطنيها في شتات المهاجر. وعلى خلاف الصين، التي استفادت استفادة هائلة من ثروة ومن موهبة مواطنيها في شتات المهاجر، قامت الهند تاريخياً بطرد وتجاهل مواطنيها في شتات المهاجر. وحتى وقت قريب، وبقدر ما كان صعباً على الهندي داخل الهند أن يدير عملاً تجارياً أو صناعياً، أو يشتري أملاكاً، بل أن يتطوع بالوقت والخبرة لأي قضية، كان ذلك أصعب أيضاً على الهنود غير المقيمين. ولم تنشئ الحكومة حتى العام 2002، وهو عقد من

الزمان بعد أن أطلقت الهند إصلاحاتها الاقتصادية، خطة سياسية نحو الأشخاص من ذوي الأصل الهندي، وهي السياسة التي مدّت المنافع والتنازلات لتشمل كل الهنود عرقياً في كل أنحاء العالم[1]. وعلى الرغم من أن بعض هؤلاء الهنود فيما وراء البحار أرسلوا، قياماً بالواجب، مبالغ من المال إلى الوطن، فقد بقي تحويل حياة عائلاتهم المباشرة، والاستثمار واسع النطاق من هذه المجموعة، غائباً.

وشاركت أنا في المناسبة الثانية من يوم الهنود فيما وراء البحار، وحظيت بامتياز المشاركة في الجلوس على المسرح في مركز المؤتمرات الكبير في نيودلهي، في فيغيان بهافان، مع اثنين من الأقوياء المخلصين في الهند الحديثة، وهما: موكيش أمباني، رئيس واحدة من مجموعات الأعمال الأولى في الهند، ولال كيشان أدفاني، نائب رئيس وزراء الهند، والرجل القوي لحزب بهاراتيا جاناتا، وقائد الحكومة الائتلافية الحاكمة في الهند في ذلك الوقت. ويجب علي أن أذكر أنه على الرغم من أنني هندي غير مقيم، وذلك بسبب أنني كنت قد عدت إلى الهند ثلاث مرات أو أربع في السنة، فأنا أبقى أكثر اتصالاً من معظم الهنود الذين يعيشون فيما وراء البحار، وبهذا لم أشعر أنني معزول، أو متجنَّب، أو مستبعد.

تحدث أمباني أولاً، وذكّر الحضور بأن أعمال والده التجارية بدأت مع علاقة في الشتات في ميناء عدن على البحر الأحمر. دهيروبهاي أمباني، الذي تُعدّ قصة حياته أشهر قصة عن الانتقال من الفقر إلى الغنى، اشتغل عاملاً لمحطة بنزين في مومباي قبل أن يهاجر إلى عدن، هناك بدأ عملاً تجارياً صغيراً في الميناء اليمني المشغول. وفي أثناء العقود القليلة اللاحقة من الزمان بنى واحدة من مجموعات العالم القائدة في البتروكيماويات وتصفية البترول، واشتهر بقدرته على معالجة مشروعات الإنشاءات الواسعة النطاق بكفاءة لا تعرف الهوادة. وكانت مجموعة ريلاينس هي الداخل الوحيد من الهند في قائمة 500 من مجلة فوتشن العالمية. وإسهام دهيروبهاي الكبير الآخر للأعمال في الهند كان التودد إلى المستثمر المالي بالمفرق. ففي العام 1977، وكان في حاجة شديدة إلى رأس المال، تجاوز سلاطين الهند من ذوي الصفقات المالية من الحجم الكبير وجمع بنجاح مبالغ كبيرة من

حملة حصص صغيرة عديدين، وصار بذلك مسؤولاً عن تغيير مهم في أسواق رأس المال الهندي. وأخيراً وليس آخراً، امتلك دهيروبهاي السياسيين طوع إشارته.

وبسبب هذا الإرث، حين دعا موكيش أمباني هند الشركات لتطور بقية البلد وامتدح شتات الهند في المهاجر بوصفهم العملاء الممكِّنين للتغيير، حملت كلماته سلطة مقنعة. وذكر أمباني الحضور أن هنود الشتات الأغنياء قد نضجوا في الغرب وكسبوا الثناء والاعتراف في كل أنحاء العالم بنجاحاتهم في الاستثمارات الاستثمارية وبنجاحاتهم الأكاديمية منذ التسعينيات من 1990. وهذا التطور الذي يُعدّ موضع الترحيب يعرض الإمكانية في أن الهند، مثلها مثل الصين، سوف تنتفع من ثروة شتاتها ومن موهبته. والإمكانية عظيمة. فالدخل السنوي اليوم للشتات الهندي يناهز 160 بليون دولار، وهو ثلث المنتج المحلي الإجمالي للهند، مع نسبة ذات حجم كبير من الثروة نشأت من وادي السيليكون، الموطن لما يقارب ثلاث مئة ألف من الهنود[2]. هل ستحقق هذه الإمكانية؟ هذا يعتمد على سؤال آخر هل ستقوم الحكومة الهندية بالتوفيق بين الخطاب الحديث وخطط السياسة الملموسة التي تصل إلى الهنود في الشتات؟

تحدثت أنا بعد أمباني، وركزت حديثي في الحاجة إلى تعيين قناة مخصصة يستطيع الشتات من خلالها أن يؤدي دوراً في الهند. وجادلت في أن مشاركات بعينها سوف تولد التزاماً واطلاعاً، لا مجرد بلاغة الخطاب. فالكثيرون من أعضاء الشتات الناجحون، خصوصاً في الولايات المتحدة، مثقفون ثقافة عالية. إن 37% من المولودين في الهند المقيمين في الولايات المتحدة، على سبيل المثال، يحملون درجات الماجستير أو الدكتوراه، بالموازنة بنسبة 8% من المقيمين المولودين الأمريكيين، وبنسبة 18% من المولودين في إسرائيل المقيمين في الولايات المتحدة، نظراً إلى كون إسرائيل قاعدة أخرى للقدرة المتفوقة في التقانة العالية. و80% من الأمريكيين المولودين في الهند ممن هم في عمر العمل يملكون درجات ثالثة مقارنة مع 54% من المواطنين الأمريكيين المولودين في الصين. وجادلت في أن العالم قدّر على نحو متزايد رأس المال المعرفي، وأن الشتات الهندي كان مكافئاً للتقدم في المعرفة في البرمجيات، وفي التقانة الحيوية، وما شاكل ذلك.

واقترحت أن هنود الشتات يستطيعون المساعدة على تشكيل المعاهد الهندية للتقانة المشهورة عالمياً والمعاهد الهندية للإدارة، وهي التي كان الكثيرون قد تعلموا فيها. وفي ذلك الوقت، كان وزير الحكومة لتنمية الموارد الإنسانية قد اقترح إخضاع معاهد التقانة للمزيد من السيطرة الحكومية والمراقبة، وهذا يعني عملياً إزالة النظام اللامركزي الذي أنتج التميز في تلك المعاهد. وكان يجب حجز نسبة مئوية أعلى من المقاعد في معاهد التقانة لأعضاء من سكان الهند المحرومين أكثر من غيرهم، وكان يجب جعل تعيينات أعضاء هيئة التدريس مركزية. وقد احتجت معاهد التقانة احتجاجاً قوياً ضد الاقتراح. فتميز المعاهد كان في جزء ليس بالصغير فيه، يعزى إلى الامتحانات المرهقة التي كانت تختار أفضل الموهبة وفعلت ذلك من ميدان لعب مستوٍ جداً، يخضع فيه المتنافسون لقواعد واحدة. وسوف تؤدي الحجوزات إلى التساهل بهذه القواعد، وكانت التعيينات المركزية وصفة للتدخل السياسي وبناء على ذلك وصفة للقدرات من مستوى دون الوسط. إن تدخل الدولة في التعليم العالي سيكون حركة في الاتجاه المعاكس من الاتجاه الذي اتخذه القطاع الخاص في البلد في العقد السابق من الزمان أي، إنهاء المركزية، وتوسيع الاختيار، وتعزيز التنافس. وعلى نحو لا يدعو للدهشة، دارت معركة قدح وذم إلى النهاية في وسائل الإعلام.

وردَّدت أنا صدى تشجيع رئيس الوزراء فاجبايي بأن الشتات يستطيع أن يقدم ثروة من الأفكار التي سوف تلحقها ثروة اقتصادية. وكان آكد طريق لحفز أعضاء الشتات الناجحين على إعادة الاتصال مع جامعاتهم هو مضاهاة المؤسسات الأمريكية عن طريق طمأنة الخريجين بأن مدخلاتهم إلى المجتمع سوف تكون محترمة وأن وقتهم سوف يقضى على النحو الصحيح. من هذه الطمأنة والثقة سوف تتدفق الأفكار والأموال. وجادلت أنا في أن التدخل الحكومي المقترح في المعاهد التقانية والمعاهد الإدارية سوف يعزل الشتات عن المشاركة البناءة مع هذه الجامعات.

وكان آخر المتكلمين الرجل السبعيني من العمر أدفاني، وهو لمدة طويلة ثابت في المشهد الهندي السياسي. وكان خطابه خطاب ضابط الإيقاع، المايسترو. وقد استجاب لأمباني ولِيَ بأن أعلن أن الوقت قد حان لوجود "ثنائي" بين الهنود ومهاجريهم في الشتات. وكان

هذا في أثناء الوقت الذي أفصح فيه حزب أدفاني، بهاراتيا جاناتا، عن حملة سياسية بعنوان "الهند المشرقة" بوصفها شعارهم في الانتخابات، وكان ذلك قبل هزيمتهم المفاجئة في الانتخابات بعد عدد قليل جداً من الأشهر. ومن الواضح أن الهند لم تشرق تماماً بالنسبة إلى المقيمين الريفيين الذين صوتوا ليخرجوهم من الحكم.

في وقت المؤتمر الثاني ليوم الهنود فيما وراء البحار، كان أدفاني في بيئته، وأكد أن الأعراف الديمقراطية ربطت الهنود مع الشتات. كان يجب أن يحدث الثنائي ضمن الأعراف الديمقراطية. لا أدفاني ولا حكومته ولا البيروقراطية كانت تستطيع أن تشكل رابطة. لقد كان ذلك يعتمد على العمل اللامركزي لجعله يحدث. والمبادرة الفردية ستكون هي المحرك للارتباط.

منذ ذلك اليوم للهنود فيما وراء البحار، صرت أشد اقتناعاً بأن الهند كانت تستطيع أن تتعلم درساً من الصين بشأن إدارة الشتات، وذلك بالحوافز الاقتصادية مقرونة بالخطاب الوطني، من أجل الصالح الاقتصاد للبلد. فالصين، عن طريق الترحيب المستمر بشتاتها، قد قذفت باقتصادها إلى الأمام، في حين أن نفور الهند المتردد، بل رعاية النفور، قد أمسك باقتصادها إلى الخلف.

والفرق طوال القرن الماضي، باستثناء فترة ماو، هو أن الدولة الصينية نظرت إلى الشتات بوصفه جزءاً من النسيج الوطني، ومصدراً يجب أن يستثار ليساعد على تحديث البلد ويساعد على التنمية الاقتصادية. ومنذ صعود دينغ هيسياو بنغ، قام القادة الصينيون المتتابعون بذكاء بتشكيل كل من خطط السياسة والخطاب؛ لتغري ثروة هذه المجموعة واستثمارها[3]. وكان يشار إلى هذه الفئة جماعياً بكلمتين صينيتين (إحداهما تعني "مواطنون يعيشون فيما وراء البحار" وأخرى تشير إلى المواطنين الأجانب من أصل صيني وأحفادهم)، وهذه الفئة من الصينيين أنتجت للصين أرباحاً حسنة. وليس هناك من مؤشر يوضح هذه الحالة الصينية الفريدة على نحو أفضل من النسبة المئوية للاستثمار الأجنبي المباشر الضخم الذي يصب في الصين، فنسبة تصل إلى 80% من الاستثمار الأجنبي في السنوات الأولى من الإصلاح، تأتي من الصينيين الذي يعيشون

فيما وراء البحار. وهذا الاستثمار هو واحد من أبرز الخصائص المميزة لصعود الصين الاقتصادي[4]. في العام 1997 لخصت المجلة الكندية (ماكلين) هذه الظاهرة الفريدة: "الصينيون فيما وراء البحار البالغ عددهم 57 مليوناً في العالم... يحكمون ثالث أقوى اقتصاد في العالم"[5].

هذه العلاقة بين الشتات والدولة كانت نافعة بشكل متبادل. فالصين عرضت باستمرار معاملة خاصة للصينيين فيما وراء البحار. وبهذا جعلت مَحافظ سلاحف البحر، وهم يسمون بهذا الاسم المرح لأن الكلمة الصينية المقابلة لكلمة "عودة" تسجع في القافية الشعرية مع كلمة "سلحفاة"، جعلت محافظهم مصطفة لإعانتهم في الصعود في أعظم قصة نمو في الأزمنة الحديثة.

من الصين إلى بلدة صينية: مستثمرو الشتات.

من هم هؤلاء الصينيون البالغ عددهم 57 مليوناً فيما وراء البحار؟ في وقت مبكر يعود إلى الأربعينيات من 1840 بدأ المهاجرون الصينيون يشقون طريقهم إلى الساحل الغربي للولايات المتحدة. في العام 1848، مع اكتشاف الذهب في تلال كاليفورنيا، زادت الهجرة زيادة كبيرة. وفي حين كان قلة منهم تجاراً مستقلين، كان معظمهم فلاحين ريفيين، وكانوا عمالاً يتعاقدون للعمل لمدة محدودة، جاءت بهم شركات التعدين والسكك الحديدية ليعملوا في المناجم وليبنوا السكك الحديدية. وبحلول العام 1860 كانت الصين قد خسرت حربين مع البريطانيين ومع القوى الاستعمارية الغربية الأخرى، وغيرت حروب الأفيون تغييراً جذرياً مشهد الصين السياسي والاقتصادي. ومن المقاطعات التي دمرتها الحرب، وعلى وجه الخصوص من غوانغدونغ، غادرت أعداد كبيرة من المهاجرين متجهة إلى الولايات المتحدة. وفي أجزاء عديدة من الصين، انضافت الفواجع الطبيعية مثل المجاعات والفيضانات إلى الفقر السائد والحرمان. وكان في الولايات المتحدة 34,000 صيني تقريباً في العام 1860.

ومع نهاية ذلك العقد من الزمان، حين تناقص التهافت على الذهب، واقترب بناء السكك الحديدية من الاكتمال، كان على آلاف من الصينيين فجأة أن يبحثوا عن عمل

بديل. وفي الحال توزعوا في مجموعات فرعية في اتجاه أعمال خدماتية مثل المغاسل والمطاعم. ومع ذلك، وقبل مرور وقت طويل، أدى تباطؤ الاقتصاد الأمريكي وما رافقه من البطالة إلى رفع حدة العواطف المناوئة للصينيين على الشاطئ الغربي. وبدأت تنتشر شعارات مثل "الخطر الأصفر" و"الصينيون يجب أن يذهبوا"، وكان يتصاعد العنف ضد الأفراد الصينيين وضد الأعمال الصينية بشكل عرقي. وفي رد فعل على ذلك، بدأ المهاجرون الصينيون يتجمعون معاً فيما صار يعرف باسم بلدات صينية، وبدؤوا أيضاً بالانتقال إلى مدن أكبر، وخصوصاً في الشرق. وبهذا الشكل كان قد تم وضع نواة البلدات الصينية الموجودة اليوم في سان فرانسيسكو، ولوس أنجلوس على الشاطئ الغربي وفي نيويورك وبوسطن على الشاطئ الشرقي[7].

بقيت الأسباب الداعية إلى مغادرة الصين قوية. ففي أثناء النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حين بقي النمو الاقتصادي صعب التحديد ولم يكن الفقر والمجاعة بعيدين أبداً، استمرت الهجرة إستراتيجية تكيف لتخفيف الضغوط. ومع ذلك، تغيرت صورة المهاجر الصيني. فالعمال غير المتعلمين حل محلهم العلماء والحرفيون الذين سعوا إلى العمل وفرص الأعمال التجارية والصناعية في الغرب. وعلى كل حال، لم يكن المهاجرون، ولا بأي حال على الإطلاق، مجموعة متجانسة. وبالاستناد إلى جيل الهجرة، ومكان المنشأ، والمستويات الاجتماعية الاقتصادية ومستويات التعليم، اقتطع المهاجرون الصينيون أماكن في معظم بلاد جنوب شرق آسيا، وأمريكا الشمالية، وأستراليا.

البلدة الصينية في بوسطن تقع في قلب المدينة، وكأنها مقحمة مثل شطيرة بين مقاطعتها المالية ومقاطعة المسارح. ومن مدة غير طويلة مشيت عبر مدخلها، باتيفانغ، وهو الاسم الصيني للبوابة التقليدية المقنطرة التي تحدد المدخل لكل بلدة صينية في كل أنحاء العالم. وكل بوابة مقنطرة كانت قد تم التبرع بها إلى مدينة معينة بصفة هبة من جمهورية الصين، ومول المساهمون المحليون بناءها[8]. وعلى مسيرة دقائق قليلة فقط بعيداً عن البوابة المقنطرة لبوسطن يوجد مكتب (فونغ واه باص كمباني)، التي كان لي فيها وظيفة مع مؤسسها المستثمر المستثمر ليانغ بيلين. نجاح ليانغ رمز للنجاح العام

للشتات في كل أنحاء العالم وللثروة المادية التي استمدت منها الصين في الأرض الرئيسة بنجاح. كنت محباً للاطلاع بشأن شركة فونغ واه باص كمباني بسبب تتابعها الذي يقارب العبادة، فالمسافرون على ممر بوسطن ومدينة نيويورك يزعمون أن ركوب حافلة الركاب مريح، وسهل، ويكلف كسراً من سعر منافسيها الأمريكيين.

صعدت درجاً ضيقاً مضاء إضاءة خافتة إلى مكتب السيد ليانغ للقائه في موعد في الساعة التاسعة صباحاً. وكانت القاعة الفارغة المشبهة لقاعة الاحتفالات تتناقض بشكل حاد مع الخارج المزدحم من البلدة الصينية. وكانت الآلات الموسيقية الصينية التقليدية تزين جداراً. وحدقت امرأة في متوسط العمر في طرفيتي حاسوب، ومن دون أن ترفع رأسها وتنظر إلى أعلى أخبرتني: "السيد ليانغ في الغداء".

ومع عدم وجود تفسير آخر قادم بشأن السبب الذي يجعل الجدول الغذائي للسيد ليانغ يضم "غداء" في الساعة التاسعة صباحاً، جلست أنا أنتظر. تأسست شركة فونغ ياه في العام 1997، واسمها فونغ واه يعني في لغة كانتون "الريح الرائعة" وهي اليوم تشغل أكثر من عشرين حافلة ركاب مع وجود خدمة كل ساعة تربط بوسطن بنيويورك. وكانت الشركة في الأصل توفر النقليات بين بروكلين والبلدة الصينية للمهاجرين الصينيين في نيويورك، ولكنها بالتدريج مدت خطها إلى بوسطن، وصارت هي المزود المنخفض التكلفة المهيمن. وبسعر يساوي 20 دولاراً للرحلة ذهاباً وإياباً، فإن فونغ واه تطلب مبلغاً أقل من نصف ما يطلبه المنافسون في النقل العام مثل شركتي غريهاوند وبيتر بان.

ووصل الرئيس متأخراً نصف ساعة. رجل قصير وعظما خديه مرتفعان وجلده غامق نسبياً، وبدا لي في الأربعين من عمره. وأخبرني بأنه كان من كانتون من مدينة جوهي في مقاطعة غوانغدونغ. وعلمت، ونحن نتحادث أنه لحق بوالديه إلى الولايات المتحدة في 1988 في السادسة والعشرين من عمره. ووالده، اللذان كانا موظفين من موظفي الياقات البيضاء في مشروعات مملوكة من الدولة في الصين، ونجحا في أن يُكفَلا من بعض الأقارب في الولايات المتحدة، قبلا عملين في مصانع ملابس بالقرب من مانهاتن. وقَبِل ليانغ وظيفتين في السواقة لبعض الوقت من الدوام: سائق شاحنة مقفلة، وموزع المعكرونة

الطويلة (نودل). في ذلك الوقت كانت شركة الشاحنات المقفلة التي عمل لديها ليانغ كانت تخدم العمال الصينيين المهاجرين الذين يعيشون في بروكلين. وشرح لي قائلاً: "لأسباب أمنية، فضل العمال الصينيون أن ينتقلوا إلى العمل في الشاحنات المقفلة التي يسوقها الصينيون، لا الركوب في وسائل النقل العامة الخطرة، وهكذا صار هذا العمل التجاري في الشاحنات المقفلة مربحاً أكثر فأكثر، وخصوصاً بعد العام 1992 أو 1993، حين وصل المزيد والمزيد من الصينيين إلى نيويورك. معظمهم كانوا مهاجرين غير شرعيين من مقاطعة فوجيان وكانوا يصلون يومياً بالزوارق".

بعد سبع سنوات قرر ليانغ أنه كان قد راكم ما يكفي من الخبرة؛ ليقيم شركته الخاصة به. وأمن رخصة من هيئة سيارات الأجرة والليموزين ليشغل حافلة ركاب على طول الشارع الثامن في مانهاتن في العام 1995. بعد عام، وصلت شركته، واسمها فونغ واه فانز إنكوريوريتد، إلى التشغيل. وكان ليانغ سائقاً ورئيساً معاً.

وبدأ ليانغ يرى حاجة لم يتم الوفاء بها داخل سوق نقليات الصينيين. فالآباء الصينيون الذين يعيشون في نيويورك كانوا يزورون بشكل منتظم أبناءهم الذين يدرسون في جامعات بوسطن. فتقدم بطلب للحصول على ترخيص لنقل الركاب بين المدينتين ودشن خدمته الجديدة في شهر حزيران/يونيو من العام 1998. في البداية لم يسجل لديه أي زبائن، ولكن قبل عيد الشكر تماماً، وهو نموذجياً أشد أيام السفر انشغالاً في الولايات المتحدة، انتشرت الكلمة عن خدمة ليانغ بين الطلاب الصينيين العائدين إلى بيوتهم لقضاء العطلة. وفي غضون أشهر كانت شركة فونغ واه أسطورة حضرية. وفي العام 2001، تصرف ليانغ، بناء على نصيحة من قاعدة زبائنه الشباب، فأدخل نظام بيع التذاكر مباشرة على شبكة حاسوب، فصارت شائعة على نحو ضخم. وتذكر ليانغ أن "الركاب المسافرين في فونغ واه تكوّنوا في العادة من 60% من الصينيين و 40% من أناس من عرقيات أخرى. في حين أن الركاب الآن بنسبة 80 أو 90% من الزبائن غير الصينيين. و60% من كل التذاكر تباع مباشرة على الشبكة".

ووجدت الأمر مثيراً للاهتمام أن ليانغ وجد طريقة ليربح من حاجات الشتات. وبمعنى كان صينيو الشتات مسؤولين عن نجاحه، وهو نجاح يعيد التغذية في نهاية الأمر

إلى الأرض الرئيسة في الصين. ولكن ليانغ صحح لي: "في تقديري أن النجاح يجب أن يترجم إلى كسب المال وبذلك المعنى فأنا لست ناجحاً أبداً. حين فشل المنافسون لي أن يجتذبوا الزبائن، قاموا بتخفيض سعر التذكرة فقط، وكان علي أن أتابعهم. أنا لا أكسب أي شيء". ولشركة فونغ واه ثلاثة منافسين رئيسين، وجميع الشركات أسسها صينيون مهاجرون من كانتون، المقاطعة التي ينتمي إليها ليانغ. وعلى الرغم من أن جريدة نيويورك تايمز روت أن فونغ واه كانت تستطيع أن تكسب 340 دولاراً عن كل رحلة ذهاب وإياب ساقتها في العام 2004، فإن الموقف الآن مختلف. وشرح لِيَ ليانغ ذلك، فقال: "لقد تضاعف ثمن النفط. وأنت تستطيع أن ترى كم بقي من هامش الربح، وربما 240دولاراً أو ربما 140دولاراً لرحلة الذهاب والإياب إذا كانت حافلة الركاب مليئة".

وهذه الهيمنة الكانتونية لا تمتد إلى أعمال تجارية أخرى. وفي الحقيقة، إن حصة الشتات الموجودين في البلدة الصينية في بوسطن تأتي في أصولها من العديد من المجتمعات الكبيرة، من هكا، وتيوتشيو، وفوجيانيِّين، وشنغهانيِّين، وجميعهم في أصولهم من أجزاء مختلفة من الأرض الرئيسة[9]. والعديد من استثماراتهم موجهة بقنوات تعود إلى مقاطعاتهم في الوطن[10]. أفراد هذه المجتمعات لا يستوعَبون ولا يتفاهمون أحدهم مع الآخر أو مع أفراد المجتمعات المضيفة لهم. وتختلف الخبرات أيضاً عبر جنوب شرق آسيا. والشتات الصيني مندمج اندماجاً حسناً في اقتصادات التاي والفلبينيين[11]. وفي ماليزيا وإندونيسيا المجتمعات الصينية ناجحة اقتصادياً، ولكنها مهمشة من الناحية السياسية والاجتماعية. والمهاجرون الصينيون في بورما أجبروا على الانتقال إلى الشمال عبر الحدود في الخمسينيات من 1950 حين أصدرت لهم الحكومة البورمية بطاقات تسجيل أجانب تمنعهم من السعي إلى الفرص المتاحة نفسها للسكان للمحليين[12].

وقصة ليانغ عن الاستيعاب مُعلومة لدى معظم مهاجري الجيل الأول. ما من واحد من أطفاله الثلاثة مهتم بتعليم الصينية. "التعليم في المدارس الصينية المحلية ليس مناسباً للأطفال. فالمضمون عميق جداً وممل للأطفال. وإذا كانوا يُعلَّمون كيف نكتب الحروف الصينية من خلال كتب مدرسية مثل كتاب (مختارات من كونفوشيوس) فكيف يستطيع الأطفال أن يوَلدوا الاهتمام بالصينية؟" وللتعويض، يصر ليانغ على أن يتحدث أطفاله

الصينية في البيت. ويعطي ثلاثة أسباب لموقفه: الأول، هو أنه يعتقد أن عليهم ألا ينسوا أنهم صينيون. والثاني، هو أن ليانغ يعتقد أن الصين ستكون قوة عظيمة في العالم في غضون الخمسين سنة القادمة، والمعرفة على الأقل باللغة الصينية العامية سوف تفتح الباب لأطفاله. وهو يضيف أن "الأمور تتغير بسرعة شديدة إلى درجة لا يعرف أحد معها ماذا سيحدث لاحقًا. حين كنا في المدرسة في الصين، كنا موالين للشعار (يسقط الاستعمار الأمريكي). ولم أتخيل أبداً أنني سأدير عملاً تجارياً في الولايات المتحدة".

ومع متابعتنا للكلام في ذلك اليوم علمت كيف كانت أسرة ليانغ قد تشكلت إلى حد كبير بتحولات الهجرة في القرن العشرين. كان جده جزءاً من الخروج الضخم في العام 1920 من الصين، حين دمرتها الحرب الأهلية بين جيوش الشيوعيين والقوميين والحرب ضد العدوان الياباني. ما يقارب مليونين أو ثلاثة ملايين نسمة غادروا الصين، فارين إما من الاضطهاد السياسي أو من الصعوبات الاقتصادية. وكان جد ليانغ قد اختار الفيليبين. وبعد بضع سنوات عاد جد ليانغ إلى كانتون ليتزوج فتاة محلية وعاد بها راجعاً إلى الفيليبين. وحين فرض ماو قيوداً حازمة على الهجرة في العام 1949، وخاف جد ليانغ من الاضطهاد لم يعد أبداً إلى الصين. أما والد ليانغ الذي كان في الصين، فلم يكن يستطيع أن يغادر البلد، ولم تتوحد الأسرة ثانية إلى أن مات جده.

وعلل ليانغ ذلك بالقول: "ربما كان ذلك بسبب أن كل أسرة في كانتون كان لها بعض الأقارب فيما وراء البحار، فلم تكن الحكومة قادرة على التمييز، فالمسؤولون أنفسهم أيضاً كان لهم أقارب فيما وراء البحار". ولكن امتلاك قريب فيما وراء البحار كان مكلفاً من طرق أخرى: كان يستطيع أن يؤثر على فرص المرء في الذهاب إلى كلية أو الالتحاق بالحزب. وليانغ حرم من فرصة دخول الجامعة في الصين بسبب عم الأب المهاجر. وبعد تخرجه في المدرسة الثانوية بدأ يتعلم الأوبرا الصينية التقليدية من معلم خاص.

وفي شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1985، تم تبني قانون الهجرة الخارجية والهجرة الداخلية، ولأول مرة ضمن القانون للمواطنين الصينيين الحق في السفر إلى خارج الصين لأسباب خاصة. وقال ليانغ: "وبدأ الصينيون فيما وراء البحار أيضاً

obeikandi.com

بالعودة لزيارة أفراد عائلاتهم في الوطن. والخيالات، والسلع الجديدة، والأموال التي جلبها الصينيون القادمون معهم من وراء البحار أشعلت الرغبة في المواطنين المحليين ليذهبوا إلى الخارج. وكنت أعرف أنني أحتاج إلى مهارات عملية للعمل في أمريكا. كل واحد في أمريكا يعرف السواقة، وهكذا تركت الأوبرا وصرت سائق شاحنة في الصين".

وكانت أسئلتي النهائية إلى ليانغ عن ارتباطاته الحالية مع الأقارب في الصين. وعكست إجاباته نجاح الصين الجديدة التي كان قد بناها دينغ هيسياوبنغ. واختتم في استنتاجه بالقول: "هناك تغيرات كبيرة! أنا نفسي أيضاً لم أستطع أن أجد طريقي عائداً إلى المكان الذي كنت أعيش فيه. حقل الرز السابق صار طرقاً سريعة. لو كانت الصين مثل هذا حين غادرتها في العام 1988، لربما كنت استبعدت فكرة الهجرة إلى الخارج".

من مطار هيثرو الدولي إلى غلاسي جنكشن بوب: صُنعُ هندات صغيرات

مطار هيثرو لندن هو أشد مطارات العالم انشغالاً. فهو يخدم بوصفه مقصداً مهمًا لتسعين من الخطوط الجوية المسافرة إلى 180 بلداً، وهو يغطي ثلاثة آلاف فدان، وهو يوظف عشرات آلاف الناس، فالمطار مدينة حقيقية بنفسها. لدى الوصول إلى هيثرو، لا يستطيع المسافر إلا أن يلاحظ وجود الهنود العرقيين في كل مكان. الهنود البريطانيون من الجيل الثالث، والرابع، والخامس ظاهرون في كل مكان بوصفهم أصحاب محال تجارية، ومعالجون للشحنات، وحجاب منظفون، وضباط هجرة أيضاً، وهو مدعاة للمفارقة الساخرة. ومن دون عناء، ينتقلون من اللغة البنجابية ويعودون لها، وهي لغة ولاية البنجاب الهندية الشمالية، ويتحدثون لهجة سكان لندن الأصليين، وهم يناقشون كرة القدم البريطانية، والشائعات عن العائلة المالكة في الوقت الذي يترجمون فيه لسائح مسن بنجابي يصل لأول مرة إلى لندن. وقد أخبرني صديق لي من السيخ، ولد، وتربى، ويعيش في سنغافورة، أن المملكة المتحدة هي البلد الوحيد في العالم، ومن جملته بلدته الوطن سنغافورة، الذي يشعر فيه أنه في وطنه، برغم أنه لم يعش هناك أبداً. لديه هيثرو ليشكره على تلك العاطفة.

هيثرو هو واحد فقط من المجتمعات التي يتجمع فيها الهنود البريطانيون ويعملون فيها. فضواحي لندن صارت هندات صغيرات طوال العقود القليلة الماضية. وساوثول البيئة التي أشاعها فيلم (أدرها مثل بيكهام) الذي كان عملاً ناجحاً عالمياً، هي مثال نموذجي للمجتمع الهندي المعاصر. ويعرض الفيلم شخصية جيس، وهي سيخية تحت سن العشرين تضعها أحلامها بأن تصير لاعبة كرة قدم بارعة في نزاع مع والديها المهاجرين الهنديين التقليديين. ومن بين صديقات جيس، سيخ بنجابيون يختلطون مع هنود قادمين من كينيا ومن أوغندا، ولكن من الواضح أن مجتمع السيخ الهندي البريطاني في ساوثول قد كرر نسخة من فوضى البنجاب ولون البنجاب. وحين كنت أمشي في شارع برودواي في ساوثول، لاحظت أن هؤلاء المهاجرين، وهم الذين وضعتهم الهند "بعيداً عن العين بعيداً عن القلب"، قد حافظوا بالتأكيد على الهند وأبقوها في عقولهم. فمعابد السيخ (غورودوارا) ومعابد الهندوس (مانديرا) مبعثرة في كل مكان. وأسواق البهارات وباعة الشوارع تذكار من البنجاب في عقود أسبق، كما هو الحال في حانة غلاسي جنكشن بوب. وهي، حسبما يظهر، أول حانة من حانات بريطانية عديدة تقبل الدفع بالعملة الهندية، فحانة غلاسي جنكشن تعرض لافتة بشكل جسور تعلن "الروبيات موضع ترحيب هنا"[13]. وهي تلصق على الجدار أيضاً خريطة كبيرة للبنجاب. وساقي حانة سيخي يقدم سلسلة من البيرة الهندية، ويلبس النادل اللباس الهندوسي التقليدي للرجال من إزار وقميص. ومهرجان بيساخي، احتفال يحتفى به في شوارع ساوثول منذ مدة طويلة، ويحتفى به الآن في قلب ميدان الطرف الأغر في لندن. وكنت مندهشاً، فسألت: هل يحضر الناس فعلاً؟ وقد خابت توقعاتي، وصدمني القول: "كان هناك ما يقارب 25,000، سيدي"[14].

وتغلغلت الثقافة الشعبية الهندية إلى الحياة في المجرى العام السائد البريطاني. فالمطاعم الهندية، المملوكة في معظمها لملاك من أصل بنجلاديشي، شائعة على نحو كبير. والدجاج المشوي المنقوع بخلطات التوابل، الذي راوح سعره بين 2,99 من الجنيهات الإسترلينية للقطعة من قسم الأغذية المجمدة في البقالة المجاورة إلى 50 جنيهاً في أكثر مطاعم لندن خصوصية من المطاعم الهندية، هذا الدجاج المشوي فاق برتبته طبق السمك وشرائح البطاطا بوصفه الطبق المفضل لدى البريطانيين. والعروض الشعبية

في التلفاز تعرض الممثلين الهنود البريطانيين والعائلات الهندية البريطانية. وفي لندن المركزية، فإن سفينة قيادة البيع بالمفرق ماركس سبنسر تبيع ساموسا (وهي فطائر هندية محشوة بالبطاطا أو اللحم المفروم) مع السيجار. باعة مفرق آخرون مثل سيلف ريدجيز يعرض في واجهة العرض شالات باشمينا المصنوعة من الصوف الكشميري ويعرض عطر المغول، عطر روح الورد. ولندن المركزية هي أيضاً موطن أبناء البلد الكبار من علية الناس، من الهنود البريطانيين الذين كسبت لهم ثروتهم وشهرتهم بقعة بين النخبة البريطانية. وأشهر هؤلاء هو لاكشمي ميتال، ملك الفولاذ. وأبناء البلد هؤلاء هم رعاة متحف فكتوريا ألبرت، وهم أعضاء في النوادي وفي نوادي القمار والترفيه المقتصرة على الخاصة، وهم حملة معتكفات خاصة لمشاهدة الكريكيت في لوردز، وهم الذين يترددون مراراً على مضمار سباق الخيل الإنجليزي الشهير آسكوت.

وصعود المجتمع الهندي إلى البروز في لندن وفي محيطها فيه مفارقة لا تخلو من التهكم؛ لأن لندن كانت عاصمة الإمبراطورية التي أخضعت الهنود في الماضي. ففي القرن التاسع عشر كانت بريطانيا التجارية بعد أن فقدت مستعمراتها الأمريكية وبعد أن تلقت الدعم من مكاسب إنتاجية الثورة الصناعية، قد نظرت إلى آسيا وإفريقية لمعاودة إطلاق توسعها. وكانت المشروعات التجارية للإمبراطورية، من إنشاء السكك الحديدية، والمستعمرات الزراعية، والصناعات ذات العمالة الكثيفة، كانت قد حرضت الطلب على اليد العاملة، والموجة الأولى من المهاجرين الهنود كانت في الحقيقة خدماً بعقود[15]. ومن الناحية النموذجية، كان المهاجرون الواصلون حديثاً مخصصين للمستعمرات الزراعية أو لمنظمات أخرى كانوا ملتزمين لها لمدة خمس سنوات أو أكثر. بعد أن تكتمل مدد عقودهم، كان كثيرون يبقون مقيمين في المستعمرات الزراعية، في حين كان آخرون يلتحقون بالمجتمعات الحضرية المجاورة، وكانوا في الغالب يجمعون بين الفلاحة، التي لا تكاد تقيم الأود، وبين العمل المأجور لكسب المعاش وللبقاء أيضاً بعد أن كان العمل بالعقود قد ألغي في العام 1917 [16].

الهندات الصغيرات أيضاً موجودة في المناظر الحضرية من شرق إفريقية، وجنوب شرق آسيا، وفي جزر البحر الكاريبي، وجميع هذه البلاد كان لها ارتباطات استعمارية بريطانية. ومن العام 1852 والعام 1937، ذهب 1,5 مليون ونصف مليون هندي إلى سيلان

وذهب مليونان من الهنود إلى ماليزيا. وحتى النصف الأول من القرن العشرين كان الهنود المهاجرون إلى شرق إفريقية، وناتال، وموريشيوس، وفيجي، وبورما، في معظمهم تجاراً، وعمالاً مهنيين مهرة، ومصرفيين، ومستثمرين، وكتاباً، ومهنيين، ورجال أعمال مستثمرين مقاولين، وكانوا جميعاً من الذين غادروا أرض وطنهم بمحض إرادتهم. وصحيح أن المهاجرين الأوائل إلى شرق إفريقية كانوا عمالاً متعاقدين يعملون في سكة حديد ممباسا، ولكن المهاجرين اللاحقين إلى كينيا، وأوغندا، وتنزانيا، كانوا مدفوعين بالفرص التجارية التي نتجت عن السكك الحديدية. وفي إفريقية الشرقية، مثلما هو في بريطانيا العظمى، صار كثيرون من نسل العمال المتعاقدين ناجحين جداً اقتصادياً، وصاروا يحققون في الغالب مستويات معيشة تتجاوز ما كانت أسرهم قد استمتعت بها في الهند. ومع ذلك فنمط المهاجرين بوصفهم عمالاً متعاقدين بقي محفوراً في أذهان الهنود في الهند، وهو سبب آخر لتجنب الهند التاريخي لشتاتها.

وأحدثت الحربُ العالمية الثانية وإزالةُ الاستعمار موجةً أخرى من الهجرة الهندية. فإعادة الإعمار بعد الحرب تطلبت يداً عاملة، واستجابة لذلك كان المهاجرون الهنود في حركة نشيطة مرة أخرى. هؤلاء كانوا هم أجداد أجداد مسؤولي الهجرة اليوم في مطار هيثرو[18]. وعلى سبيل المثال، كان المجتمع الأنجلو هندي، أحفاد العاملين الاستعماريين والعسكريين البريطانيين الذين رابطوا في الهند، مصدر العمالة للسكك الحديدية. وبعض هذا المجتمع وقف مع البريطانيين في أثناء حركة حرية الهند، وكافحوا لكسب القبول الاجتماعي في الهند المستقلة. وكثيرون منهم غادروا ليتابعوا فرصاً اقتصادية في المملكة المتحدة. وجندت بريطانيا أيضاً عاملين طبيين من الهند، وخصوصاً الأطباء الناطقين بالإنجليزية من كليات الطب البنجابية المعتمدة، لتزويد الخدمة الصحية الوطنية التي أنشئت حديثاً بالعاملين. وبرغم أن قانون مهاجري الكومونويلث للعام 1962 وقانون المهاجرين للعام 1971 قد حددا المزيد من الهجرة الأولية، فقد سمح لأعضاء عائلات المهاجرين الذين سبق لهم أن استقروا سمح لهم بالدخول. واستمر الشتات بالتوسع.

وفي السبعينيات من 1970 أدى سبب أسوأ مما سبق إلى إحضار موجة أخرى من الهنود إلى بريطانيا وإلى أمريكا. كان اللاجئون يهربون من المضطهِدين الأفارقة، وبشكل

ملحـوظ في كينيـا وفي أوغندا، بعد أن كانت أسرهم قد جعلـت من تلك البلاد أوطاناً لها طـوال ثلاثة أجيال أو أربعـة أجيال[19]. ومثلما تلقى ما يسمون يهـود إفريقية المسيطرين اقتصادياً، تحمل الهنود الأثر الرئيس للسخط حين اكتسبت الحركات القومية الإفريقية العـزم. ومثّلُ هذا الترحيل للهنود المغتربين فيمـا وراء البحار كان قد مورس أيضاً بشكل أقـرب إلى حدود الهند. ففي استجابـة للفرصة الاقتصادية، في حقول الرز الخصبة من دلتـا إرّاوادي، على سبيل المثال، سعى الهنود إلى الثروات في بورما. الجيل الثاني والجيل الثالـث مـن الهنـود البورميين، اقتطعـوا لأنفسهم حيـاة مريحة، ولكن مع مـرور الزمن أجبرتهم العواطف القومية على الخروج أو أنقصت من مستواهم الذي حققوه.

وكذلـك في السبعينيـات مـن 1970، قامت دول الخليج، وقد توافـر لها وفرة من المال النقـدي الحاضر من ازدهار النفط، قامت بتجنيـد عمالة من الهند بشكل مسعور. وبدا الأمـر وكأن الشيـوخ العرب وشـركات "الخليج للتوظيـف" قد حلت الآن محـل الإداري الاستعماري الأبيض الذي كان يجمع العمال الآسيويين غير المهرة وينقلهم إلى الأراضي المستعمـرة الخلفيـة. أكثر من نصـف من 3 ملايين هندي جـاؤوا إلى الخليج، قدموا من كـيرالا الولايـة الهندية الجنوبيـة. و70% تقريبـاً منهم استخدمـوا كتابـاً، وأساتذة في المدارس، وكتاب اختزال، وعمال إنشاءات. وكان أطبـاء الياقات البيضاء، والمهندسون، والمهندسـون المعماريـون، والمحاسبون القانونيون قـد أكملوا الباقي. وهكـذا فإن الأيدي الهنديـة بنـت الإمبراطوريـة الاستعمارية وبنت المشيخـات العربية في بلـدان البحرين، والدوحة، ودبي، والمملكة العربية السعودية[20].

وفي أواخر السبعينيات من 1970، والثمانينيات من 1980، والتسعينيات من 1990، وفي الوقـت الذي كانـت العمالة الهندية فيه مستمرة في بناء البلـدان العربية الغنية بالنفط، غادرت مجموعة أخرى من الهنود إلى مقصد جديد، وهو أمريكا الشمالية. وعلى خلاف العمـال المتعاقدين مـن العصر الاستعمـاري والعمال شبه المهرة في عصـر الخليج، كان هـؤلاء المهاجرون في معظمهم مـن الأطباء، والمهندسين، والأكاديميـين، ورجال الأعمال المستثمرين. هؤلاء المهنيون أصحاب المهارة العالية حققوا مثل هذا الظهور المرئي والبروز

في البلـدان المضيفة في أمريكا الشماليـة إلى درجة أن الهند المترددة نفسها أجبرت على الاعتراف بهم.

واستطاعـت مجموعة من المهندسين ورجال الأعمـال المستثمرين الموجودين في وادي السيليكـون في كاليفورنيـا، وهو قطـب الرحى في تقانـة المعلومات في الولايـات المتحدة، أن تضـع الشتـات الهندي تحت انتبـاه كل النـاس. ويشـير أنالي ساكسينيـان من جامعة كاليفورنيا في بيركلي إلى أن الهنود يديرون أكثر من 750 شركة تقانة في وادي السيليكون، ومـن جملتها 10% تقريباً مـن تلك الشركات كانت قد بدأت منـذ 1995. ويسمح الوادي أيضـاً، علـى نحو مهم، للهنـود بأن يتجنبـوا انقساماتهـم الإقليمية واللغويـة التقليدية. ويشـرح ساكسينيان ويقول إن: "مجموعات مثـل رابطة وادي السيليكون للمهنيين الهنود (إسـ آي بـي إي)، ومجموعة رجال الأعمـال ومستثمري الإندوس (تـي آي ئي) ينشئون هويـات مشتركة بـين جنسية هـي منقسمة فيما عدا ذلـك. والهنود تاريخيـاً منقسمون بعمـق وهم من الناحيـة النموذجية يعزلـون أنفسهم بالاختلافات الإقليميـة واللغوية... فالبنغاليـون، والبنجابيـون، والتاميل، والغوجاراتيون يميلـون إلى البقاء معاً. ولكن يبدو في وادي السيليكـون أن الهوية الهندية قد صارت أقوى من هذه التمايزات الإقليمية"[21]. وقد ظهرت بعض قصص النجاح الرائعة. سابير بهاتيا، مؤسس الهوتميل، باع شركته في العام 1997 إلى مايكروسوفت مقابل 400 مليون دولار. وبشكل مشابه، غوروراج ديشاباند هندي باع وأسس شركات عدة في تقانة الشبكات. وهو يرقى في مرتبته إلى صفوف أغنى الناس في العالم، بقيمة صافية في المدى بين 4 بلايين دولار و 6 بلايين دولار.

فن الصين في إدارة الشتات

بحلول العـام 1949 كان عدد الشتات الصيني يناهز 10,7 مليون نسمة[23]، وواجه ماو واجب تطويـر خطة سياسية نحو هذه المجموعة المتوزعة والغنيـة بشكل متزايد. أتتجنب جمهوريـة الصين الشعبية الشتات الاستثمـاري المستثمر بوصفـه رأسمالياً أم تقيم معه علاقات مثلما فعلت أنظمة الحكم السابقة؟

وكانت أسرة تشنغ (1609 – 1911)، وهي آخر أسرة إمبراطورية للصين، في سابقة تُذكَر، قد أمَّلت أن الشتات كان سيساعد في تحديث الصين، وكانت قد أقامت ترتيباً من المؤسسات والخطط السياسية لتجتذب استثمارات الشتات. وتضمنت هذه الخطط السياسية إقامة غُرف للتجارة في البلاد التي يقيم فيها عدد كبير من السكان الصينيين عرقياً، وكانت تلك الأسرة تعرض رتباً وألقاباً للتجار الذين عملوا استثمارات كبيرة في الصين، وكانت ترسل بعثات خاصة إلى جنوب شرق آسيا لتجمع أموالاً للمشروعات الواسعة النطاق، وكانت تحسن بيئة الأعمال عن طريق كبح الفساد[24]. وربما كان أهم ما عملته أسرة تشنغ في العام 1909 أنها تبنت قانوناً للجنسية جعل كل صيني عرقياً مواطناً من رعايا تشنغ بغض النظر عن مكان الميلاد أو الإقامة. وفي أثناء القرن التاسع عشر كان مبدأ قانون الدم، وهو المبدأ النابع من فكرة أن للوالدين الحق في نقل مواطنية أطفالهم في أي مكان ولدوا فيه، كان قد تم تبنيه في كل أنحاء أوروبة ونقل المبدأ بعدئذ إلى المستعمرات الأوروبية. وكان البديل لذلك هو حق مسقط الرأس أو حسب الأصل اللاتيني "حق الأرض"، ونص ذلك المبدأ على أن مكان الولادة أملى المواطنية. وعائلة تشينغ في تبنيها حق الدم كانت تلقي بشبكة واسعة تصل لا إلى الصينيين فيما وراء البحار الذين كانوا قد ولدوا في الصين فقط بل إلى كل الصينيين عرقياً.

بدأ ماو بالإقرار بأهمية الشتات. وأسس هيئة شؤون الصينيين فيما وراء البحار، بل أقام محال بيع بالمفرق خاصة بالصينيين فيما وراء البحار ليصلوا إلى مواد تُعدّ نادرة تحت ظروف أخرى. ولكن التناقضات برزت في الحال. فعلى سبيل المثال، كان ماو واعياً بشكل حاد أن القطع النادر والتحويلات كانت ذات أهمية كبيرة في اقتصاد مغلق، فتقديم "حوافز خاصة" للصينيين الموجودين فيما وراء البحار كان ضد الاشتراكية، التي كان فيها كل المواطنين سواسية[25].

ومع حلول الوقت الذي أُطلقت فيه الثورة الثقافية، كان ماو قد نأى بنفسه نأياً متزايداً عن الشتات، وبدأ ينظر إليهم بريبة بوصفهم قوة محتملة لزعزعة الاستقرار. وأغلقت

مؤسسات استثمار الصينيين فيما وراء البحار، وأقفلت المحال الخاصة بالبيع بالمفرق، وأسيء لفظياً إلى المواطنين الصينيين الذين لهم اتصالات فيما وراء البحار، وضربوا جسدياً. وهكذا تكون الثورة الثقافية قد فككت هيكل إدارة الشتات الذي سبق أن أنشئ طوال أسرة تشينغ، وكومنتانغ، والسنوات الأولى من جمهورية الصين الشعبية.

نقض دينغ هيسياوبنغ الضرر الذي أوقعته الثورة الثقافية على الارتباطات مع الشتات. ففي العام 1977 عقد مؤتمراً لكل الأمة فيما وراء البحار في بيجين ليكون أول خطوة نحو السعي إلى الحصول على استثمارات من الشتات[26]. وإضافة إلى ذلك، أعدت المشهد افتتاحية في جريدة بيبولز ديلي من أجل هذه الخطط السياسية بإعلان أن العلاقات الطيبة مع الصينيين فيما وراء البحار ضرورية لتحديثات الصين الأربعة: تحديث الصناعة، وتحديث الزراعة، وتحديث العلم والتقانة، وتحديث القوة العسكرية[27].

ابتداء من العام 1978 أنشأت كل مقاطعة، وكل منطقة مستقلة استقلالاً ذاتياً، وكل بلدية في الصين، مكتباً للشؤون الصينية فيما وراء البحار له أهداف تسعى من أجلها إلى بناء علاقات منهجية مع الشتات. وبين العام 1978 والعام 1990 سنّت الصين خمسين قانوناً وسنّت تنظيمات تسعى إلى إقامة "معاملة متساوية من دون تمييز" لجميع الصينيين الذين يعيشون فيما وراء البحار، مع الأخذ في الحسبان اعتبارات الخصوصيات[28].

وسُنّ تشريع في العام 1983، والعام 1985 من مجلس الدولة منح مكانة خاصة للصينيين فيما وراء البحار الذين استثمروا في المناطق الاقتصادية الخاصة التي تأسست على طول الساحل الجنوبي والشرقي من البلد. هذه الخطط السياسية كانت موجهة إلى أهدافها في صفوف 20 مليون صيني في جنوب شرق آسيا أغنياء غنى غير عادي، وكانوا يملكون أصولاً قدرت بمبلغ 200بليون دولار. شاياوسياهنغ Qiaoxiang لفظة صينية تشير إلى منطقة كان قد هاجر منها عدد لا يستهان به، وتلقت هذه المنطقة انتباهاً خاصاً. وبحلول منتصف الثمانينيات من 1980، كان الصينيون قد أنشؤوا هيكلاً تنظيمياً وتخطيطاً سياسياً كبيراً مكرساً لإدارة شتاتها. وصارت فائدة الشتات واضحة حين تسلمت الصين

تحويلات بقيمة 5,5 من بلايين آر إم بي (727 مليون دولار) في أول عقد من الزمان من الإصلاح.

وفي كل التصريحات الرسمية تقريباً للحزب الشيوعي الصيني يشيرون إلى الشتات بوصفهم جزءاً من الصين. ويتودد قادة الحزب للصينيين فيما وراء البحار، وتعقد سلسلة من المؤتمرات الوطنية لتشجيع الشتات على أن يستثمروا في مقاطعات لهم فيها علاقات عائلية. وقد عقد المؤتمر الدولي الثامن عشر للهاكا في مدينة جينغجهو من مقاطعة هنيان في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام 2003. وكلمة هاكا، التي تعني "الضيف" تشير إلى هجرة شعب هاكا من عقود طويلة من الصين الوسطى أولاً إلى الصين الجنوبية ثم إلى ما وراء البحار بعد ذلك. وركز الرقص والغناء في أثناء احتفالات الافتتاح في موضوع إعادة توحيد الهاكا وكانت الاحتفالات مدعومة بألعاب نارية لمدة ثلاث ساعات. واجتذب المؤتمر ما يقارب ثلاثة آلاف مندوب من وراء البحار ومن الصين، وقامت الحكومة بتقديم السكن المجاني لكبار القادة البارزين من رجال الأعمال. وتحدث القادة السياسيون وقادة الأعمال، ومن جملتهم الحاكم لي تشينغايو، الذي شدد على "العلاقة العاطفية" بين الهاكا وبين مقاطعة هينان. وكان من المتوقع أن دماثة الخلق التي سادت في المؤتمر سوف تؤدي إلى الاستثمار.

فن الهند في سوء إدارة الشتات

لم ينشئ حكم التاج البريطاني في الهند أي خطط سياسية خاصة لإغراء ثروة الشتات الهندي وموهبته. وكان البريطانيون في الهند منهمكين انهماكاً شديداً في توفير مصدر رخيص من العمالة لمستعمراتهم. ولكن ما هو أقل قابلية للفهم هو الأسباب التي دعت الهند المستقلة إلى إهمال شتاتها.

مبادئ سياسة نهرو الخارجية وجدول أعماله للتنمية الاشتراكية المحلية تقدم تفسيراً. ففي أثناء ذروة الحرب الباردة اعتنق نهرو، بالمشاركة مع تيتو من يوغوسلافيا وجمال عبدالناصر من مصر، سياسة عدم الانحياز. واختارت بلدان عدم الانحياز أن تبقى بعيدة عن أي كتلة سياسية أو اقتصادية بنيت على الإيديولوجية. وبشكل محدد

سعوا إلى البقاء خارج تأثير كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. وقادت تلك المبادئ نهرو كذلك إلى نصيحة الهنود المستقرين في الخارج إلى تبني مواطنية بلدانهم المضيفة لهم. فكان التدخل من الهند نيابة عنهم سيبدو غير منسجم مع محاولة الهند لإبقاء الكتلتين الدوليتين على مسافة واحدة منها، وكان هذا التدخل سيؤذي الهنود الموجودين فيما وراء البحار لا غير.

وفكُّ الهند ارتباطها مع الشتات عكَس أيضاً سياسة تنميتها الاقتصادية التي تنظر إلى الداخل، وهي سياسة استبدال الواردات والاعتماد على النفس، إضافة إلى ميلها إلى تفضيل رأس المال المحلي على رأس المال الأجنبي. في حين أن أسرة تشينغ في الصين كانت قد سعت إلى رأس مال الصين فيما وراء البحار ليكون بديلاً لرأس المال الأجنبي. ومعاداة الهند للاستعمار كانت موجهة ضد كل الأجانب ومن جملتهم الهنود المستقرون فيما وراء البحار. ولم يكن ينظر إلى رأس المال الأجنبي بوصفه مسهماً في التنمية الاقتصادية للهند.

وتحت حكم إنديرا غاندي، صارت سياسات الأمة أكثر استبطاناً لنفسها أيضاً. وبلغت الحركة الشعبية ذروتها. وقدمت السيدة غاندي التأميم، بل إن رُخَص الحاكم البريطاني وروتين الحصول عليها جعلت البلد أشد بعداً عن الضيافة للمشروع الخاص، وخصوصاً للأجانب غير العارفين. ومن المفارقة المثيرة للتهكم، أن هذه البيئة المحيطة بالأعمال لم تردع المستثمرين الأجانب فقط، بل قادت أيضاً بعض أكبر صناعي الهند إلى الاستثمار والتوسع في خارج الهند. وكانت استثمارات أديتيا بيرلا في جنوب شرق آسيا مثالاً مبكراً.

وبحلول السبعينيات من 1970 كانت قد تغيرت صورة المهاجر الهندي. فقد كان عدد ضخم من النخب المهنية يغادرون وطنهم إلى بلدان مثل الولايات المتحدة، والمملكة المتحدة، وأستراليا. وكانت الصحافة الشعبية قد سمت هذه الهجرة "استنزاف العقول". وكان المهاجرون يُتهمون باستخدام التعليم الثانوي الممتاز في الهند واستخدام المدارس الطبية والهندسية لتحسين مساراتهم الوظيفية الشخصية من دون إعادة أي شيء في المقابل.

والألقاب الساخرة التي تنبذ الهندي غير المقيم وتتلاعب بالألفاظ مثل "الهندي الذي لن يعود" و"الهندي غير المطلوب"، ألقاب سمعت مراراً وتكراراً. وهكذا، فطوال الثمانينات من 1980، حين كانت الصين مشغولة في إقامة منظمة بعد منظمة لرعاية حاجات الصيني المقيم فيما وراء البحار، أغلقت الهند الباب في وجه شتاتها. إن تبني حق مسقط الرأس واعتبار الهنود المقيمين فقط هم الذين يستحقون أن يعطوا الهند إسهاماتهم، يجب أن يصنف بوصفه حالة من بين أسوأ الحالات من سوء إدارة مصدر قومي في الأزمنة الحديثة. إن مجموعة الأفراد الناجحين، والمرتبطين عاطفياً الراغبين في إعادة العطاء إلى الهند كانوا يُستَبعدون على نحو متكرر. ويبدو الأمر وكأن رسالة فيها خطأ في التاريخ وهي في غير زمانها من بعض كتب الهندوسية، تمنع السفر فيما وراء البحار، وتستمر في ممارسة سيطرة على صانعي السياسة الهندية. فتاريخياً كان الهنود الذين يغادرون البلد يعاقبون بوصفهم قد عبروا الماء الأسود، ولذلك كانوا يُعدّون غير أنقياء. وصارت بعدئذ كلمة الماء الأسود (كالا باني) اسماً أطلق على مستعمرة للعقوبات أنشأها الاستعمار في الهند البريطانية، في جزر أندامان في خليج البنغال، لتؤوي مجموعة من المقاتلين في سبيل الحرية في الهند. ومع مرور الزمان، صارت اللفظة مرادفة للإبعاد، تماماً مثلما كان الهنود الذين عبروا البحار قد أبعدوا من الموقف العقلي القومي. ومن المفارقة المثيرة للتهكم، أن المحيط الهندي كان فيما مضى رمزاً لامتداد تجارة الهند العالمية والحملات البحرية[30].

وعلى الرغم من هذه البيئة المعادية حاول بعض الشجعان المخلصين من الشتات الهندي، ونجحوا في تقديم إسهامهم. سام بيترودا، وقد ولِد باسم ساتياناراين غانغارام بيترودا تيتلاغارث في ولاية أوريسا، تابع دراسته في الفيزياء والإليكترونيات في ولايته في الوطن، وحصل على درجة هندسة كهربائية في جامعة تشيكاغو، وبعد ذلك عاش طوال عقدين مساراً وظيفياً ناجحاً في العديد من الشركات الأمريكية. وبيترودا في الهند معروف على أفضل وجه؛ لأنه أسس مركز تطوير الاتصالات (تيليماتيكس) في العام 1984، وهي محاولة لتوصيل الهواتف إلى الهند الريفية. وكما يصف غورتشاران داس في كتابه (الهند بلا قيد)، فيقول إن بيترودا "قرر أن يبدأ في القمة، مع السيدة غاندي.

وبعد الانتظار لمدة خمسة أشهر للحصول على موعد، قابلها وأثر فيها. وقابل أيضاً ابنها، راجيف غاندي، ولامس فيه وتراً. وأخبرهما أنه كان يستطيع أن يوصل الهواتف إلى القرى، ويحسن خدمة الزبائن، ويغير إلى البدالات الرقمية وأن يفعل هذا كله في مقابل القليل جداً. واشترت الحكومة حلمه وفوجئ بذلك كل الناس"[31].

وفي غضون ثلاث سنوات صنع بيترودا ومجموعته من العلماء الشباب تقدماً ضخماً. وعين راجيف غاندي بيترودا ليرأس هيئة اتصالات الهند. وكان لعمل الهندي غير المقيم أثر ضخم. ففي السبعينيات من 1970 كان من غير الشائع للهنود الحضر حتى للطبقة الوسطى العليا منهم أن يمتلكوا هاتفاً. وأنا أتذكر أنه كان علي أن أمشي إلى بيت أحد الجيران لأجري مكالمة هاتفية، أو أن أكون قد دعيت من صاحب حانوت عند زاوية الشارع لأستقبل مكالمة. وكان على سكان الهند الريفية أن يمشوا أميالًا عدة ليصلوا إلى خط هاتف شغال، وفي مومباي كان وقت الانتظار اللازم لشراء هاتف يصل إلى عدة سنوات، وبحلول العام 1990، على كل حال، وشكراً للمهاجر سام بيترودا، كان خمسة ملايين هندي قد امتلكوا هواتف جديدة، وكانت ملايين من الهواتف الجديدة قد ركبت سنوياً منذ ذلك التاريخ[32].

إعادة اختراع الهندي غير المقيم

جيتيرث "جيري" راو هندي آخر غير مقيم عاد إلى الهند وبدأ مشروعاً ناجحاً. وأعماله في البرمجيات، (مفاسيس)، التي أسسها في العام 1998، هي واحدة من أضخم عشرة أعمال في الهند[33]. ولد في بنغالور وتلقى تعليمه في تشيني وجامعة تشيكاغو، وقضى راو خمسة وعشرين عاماً يتسلق التسلسل الهرمي المؤسسي في سيتي بانك. وافتتن بحب مقاولات الاستثمار حين كان كل واحد، ومنهم أخوه، يبدؤون بتأسيس شركات. وشرح ذلك، فقال: "كان من عادتي أن أعطي أعمالاً لكثيرين من هؤلاء البادئين؛ لأنني امتلكت ميزانية تقانية ضخمة بالنسبة إلى أشياء تجريبية متنوعة كانوا يعملونها. وهكذا قلت لنفسي. ماذا أفعل أنا؟ لماذا لا أفعل أنا هذا؟" ولكنه كان دائماً يحن إلى الوطن وشعر أنه كان يستطيع أن ينجح. وفي قصيدة كتبها قبل أعوام عدة من بدء أعماله مفاسيس، قال:

المنفى حالة في الإهاب

إنه دملٌ يطفح، وينجرح، وتتقرَّف القروح،

وتلعق الحميّات السطح

فتستثير النسيج الضام من الداخل،

والماء البارد ليس شفاء

لأنه يترك خلفه رواسب من الملح،

ومعزوفات الليل تحت نافذة الحبيبة

الملح الذي يحرق، وينهش الإهاب

وفي ليالي أيلول الموحشة،

يواجه حنين الأشواق إلى الأسلاف[34].

وصـارت قصـص مثـل قصـة راو شائعة تمامـاً. ولكي نقرر كـم كان الشتـات مهماً لصناعـة البرمجيات في الهند، قمت أنا وورومانـا ناندا، طالبة لدرجة الدكتوراه في معهد التقانة في ماساتشوسيتس بعمـل مسح لرجال الأعمال المستثمرين في ميدان البرمجيات الذيـن يديرون أعمالهـم في الهند. ومن بـين 208 رجال أعمال مستثمريـن يشاركون في المسح المستند إلى الإنترنيت، كان 58% قد عاشوا خارج الهند ثم عادوا بصفة هنود غير مقيمين. وزيادة على ذلك، استخدم 88% من المشاركين بالمسح شبكة الشتات لمساعدتهم في بـدء أعمالهـم، وبشكل رئيس لمساعدتهم في الحصول على عقـود في الولايات المتحدة التـي كانت تستطيع أن تساعدهم في تأمين عقود أوليـة لخدمات شركاتهم. كان الشتات مصـدراً مهمـاً لرجال الأعمال المستثمرين في صناعة البرمجيـات، بل إن رجال الأعمال المستثمرين الذين لم يكونوا من الشتات بحثوا في الغالب عن الشتات، ليساعدهم على بدء أعمالهم. وأظهر تحليلنا أيضاً أن الشتات كان مهماً على نحو غير متكافئ لرجال الأعمال المستثمريـن الموجودين في مواقع خارج مراكز البرمجيات الهندية الرئيسة[35]. في المدينة

obeikandi.com

التي تُعدّ قطب الرحى، وهي بنغالور، كان رجل الأعمال المستثمر يستطيع بسهولة أن يستأجر الموهبة، وينشد التمويل، ويجد ممثلين من شركات موجودة في الولايات المتحدة لها قواعد محتملة ممكنة من الزبائن. وبالنسبة إلى شخص ما يحاول أن يؤسس عملاً تجارياً فيما يسمى مدينة طبقة 2 مثل جيبور أو بيون، كان الابتداء أصعب، والوصول إلى الشتات كان أكثر فائدة أيضاً[36]. وربما في اعتراف بَدهيٍّ بهذه الظاهرة، أعلن حديثاً الاتحاد الهندي للصناعة، تشكيل المجلس الهندي الأمريكي للاتحاد الهندي للصناعة، الذي يرأسه سام بيترودا، ليتصل مع أعضاء الشتات الذين يسعون إلى عمل تغيير يحدث فرقاً في بلداتهم الوطنية[37].

وفي السنوات القليلة الماضية صارت تجمعات أعضاء الشتات أكثر تكراراً، داخل الهند وخارجها. ففي العام 2005 دعيتُ للتحدث في المؤتمر العالمي لخريجي معهد التقانة في ماساتشوسيتس، الذي عقد بشكل مناسب في شارع الديمقراطية في بيثيسدا، في ميريلاند. وكان دوري هو أن أتولى إدارة النقاش عن فرص الاستثمار، وكان النقاش بصحبة كي. في. كاماث، المدير التنفيذي الرئيس لمصرف آي سي آي سي آي في الهند، وفيكنور مينيزيس، مسؤول التشغيل الرئيس في سيتي غروب. وكان يمكن لنائب رئيس مجلس الوزراء الهندي السابق أدفاني أن يسمي هذا المؤتمر الثنائي الآخر، بين الشتات وبين الهنود المقيمين. وكان وجود ضيوف أمريكيين من أصحاب الظهور العالي في لجنة النقاش مثل توماس فريدمان، كاتب عمود في نيويورك تايمز، ومثل جاك ويلش المدير التنفيذي الرئيس السابق لجنرال إليكتريك، كان دليلاً على أن الشتات الهندي قد بلغ سن الرشد.

ما الذي حث الهند على أن تبدأ بالتحرك بعيداً عن أعراض ما سمته متلازمة "الهندي غير المطلوب"؟ وتكمن الإجابة في ردود فعل البلد نحو أزمة وفي مبادرة القطاع الخاص.

في العام 1991 أُجبرت الهند على أن تعيد التفكير في موقفها، حين حفزت أزمةُ توازن المدفوعات الحكومةَ على الرجوع إلى الشتات من أجل الحصول على رأس المال[38]. ولعدة

عقود، كانت التحويلات من العمال المغتربين، ومعظمهم من منطقة الخليج، كانت عموداً مهماً، ولكنه غير معلن عنه، من التدفقات المالية إلى الهند. وفي أثناء أزمات النفط في العام 1973، والعام 1979 عملت هذه التحويلات مثل وسادة مخمدة للهند من الصدمة الاقتصادية الخارجية[39]. وفي العام 1991 أدت حرب الخليج بهذه التحويلات إلى أن تجف. وسحب المستثمرون الذين ضربهم الذعر أموالَهم. وهو ما زاد الموقف سوءاً. ولم يبق لدى الهند وهي في حضيضها من القطع الأجنبي إلا احتياط أسبوعين فقط.

كانت الهند تعرف أنها كانت تستطيع أن تفاتح الشتات من أجل الحصول على المساعدة. والهنود غير المقيمين، بفضل بروزهم المتزايد وخصوصاً في الولايات المتحدة، كانوا قد اكتسبوا في الهند، في ذلك الوقت، حصة عقلية أو الشعبيَّة الواسعة لدى المستهلكين. ورجال الأعمال المستثمرون في وادي السيليكون كانوا من بين أول من تم الاتصال بهم. وكانت خلفياتهم المتواضعة، وتعليمهم في معاهد التقانة في الهند، وقصص نجاحهم، قد صارت مادة لتراث المعرفة. ومن الناحية العددية، كان السكان الهنود في الولايات المتحدة قد تضاعفوا ثلاث مرات بين العام 1980 والعام 1997، وهذا ما جعل الهنود الأمريكيين ثالث أضخم عدد أمريكي آسيوي في البلد، بعد الصينيين والفيلبيين[40].

وزيادة على ذلك، فاق دخلُ الأمريكيين الهنود لكل شخص دخْلَ كل فئة أخرى في البلد (ومن جملتهم الأمريكيون البيض) باستثناء الأمريكيين اليابانيين[41].

وهكذا بدأ خطاب الهند الطارد بشأن الشتات يتغير بسبب الضرورة. ولكن البنية التحتية لإدارة الشتات من حيث الضخامة والكفاءة المشهورة في الصين لم تنشأ فوراً. وكان أول عمل محسوس للحكومة لاجتذاب استثمار الهندي غير المقيم هو تعويم سندات الهند الناهضة في شهر تموز/يوليو من العام 1998 من قبل أضخم بنك في الهند، وهو بنك دولة الهند المملوك للحكومة. ولكن هذا العمل أيضاً حثت عليه الأزمة.

في شهر آيار/مايو من العام 1998 جربت الهند قنبلة نووية. وتبع ذلك الاستنكار العالمي والعقوبات الاقتصادية. والسندات توقعت تآكّل احتياطي القطع الأجنبي وحثت على الاستجابة الكاسحة من المستثمرين. وكان على الحكومة أن تغلق الإصدار قبل الأوان؛ لأنه تجاوز بسرعةٍ هدفَه وهو بليونا دولار بنسبة 100%. بل إننا إذا أخذنا الشروط الجذابة للسندات في الحسبان، فإن مبلغ المال غير المتوقع الذي جمعته أظهر كم كان المستثمرون من الشتات راغبين في مساعدة أرض وطنهم.

ولكن، ربما كان أظهر اعتراف "مرئي" بهنود ما وراء البحار هو تعيين حكومة فاجبايي للجنة تخص الشتات. وقد جاءت هذه اللجنة بعد عشر سنوات تقريباً من عملية الإصلاح التي كانت تسير سيراً حسناً، وأقرت اللجنة أنها كانت أول جهد للحكومة في هذا المجال. ومن مفاخر هذه اللجنة أنها قدمت عدداً مهماً من المقترحات للخطط السياسية لإشراك الشتات الهندي، ومن جملة المقترحات أن تنشئ الحكومة الهندية منظمة "نافذة واحدة" لتدير قضايا الهنود فيما وراء البحار. وأقرت اللجنة أيضاً حاجة الهند إلى التعلم من خبرات البلدان الأخرى بخصوص شتاتها، ومن جملتها شتات الصين[42].

ووسعت الحكومة الهندية أيضاً تعريف الشتات. ففي حين كانت الحكومة من قبلُ قد اعترفت رسمياً بالهندي غير المقيم، وبدأت بإعطاء بعض التنازلات (على سبيل المثال، القدرة على شراء الممتلكات إضافة إلى التوظيف وإلغاء التأشيرة للسياح)، فقد أصدرت الحكومة الهندية أيضاً في العام 2002، بطاقات للأشخاص من الأصل الهندي شملت عدة أجيال من الهنود عرقياً الذين كانوا مقيمين في الخارج. وكان هذا العمل يهدف على وجه الخصوص إلى إعادة الاتصال مع أجزاء من الشتات كانت قد نتجت من العصر الاستعماري. إن إنشاء صنف شخص من أصل هندي كان محاولة من الحكومة الهندية لتقترب أكثر من مبدأ قانون الدم. وحملة بطاقات شخص من أصل هندي كانت لهم الامتيازات نفسها التي للهنود غير المقيمين، باستثناء قدرتهم على الحصول على ممتلكات زراعية أو مزارع[43].

وفعل القطاع الخاص أكثر مما فعلت الحكومة. فمصرف القطاع الهندي الخاص الرئيس، آي سي آي سي آي، تابع بجسارةٍ التوسعَ الدولي ابتداء من العام 2001 [44]. وأدرك أن ما يقدر بنسبة 10% من تحويلاته العالمية كانت تتم من هنود ما وراء البحار الذين يبرقون بالمال إلى الهند ويدفعون بشكل نموذجي رسوم تحويل باهظة لبنك ويستر يونيون أو لخدمات تحويل برقية أخرى. حسَّن مصرف آي سي آي سي آي بنيته التحتية التقانية وعزز علاقاته مع بنوك في الشرق الأوسط، وهو المكان الذي يمكن فيه أن يستهدف العدد الكبير من العمال الهنود في بلدان الخليج، لكي ينشئ البنك طريقة منخفضة التكلفة لإرسال المال إلى الوطن.

وكان وجود منتجات لإجراء تحويلات أرخص وأجود طريقاً أيضاً لتشجيع الزبائن على حفظ ودائعهم في البنك. وكانت ودائع المفرق جذابة للبنوك لأسباب عدة. الأول، هو أنها تقدم مصدراً رخيصاً نسبياً من الأرصدة. ومعدلات الفائدة التي تدفع للودائع كانت تقريباً أقل بنسبة 0,5% إلى 0,75% من معدلات البنوك التي تدعو الحاجة إليها للدفع عن المال المقترض عبر قنوات أخرى. والثاني، هو أن ودائع المفرق أعطت البنوك فرصة لبيع منتجات إضافية ذات قيمة أعلى مثل الأرصدة المشتركة وخدمات الاستثمار الأخرى المتمركزة في الهند للهنود غير المقيمين وربط تلك المنتجات مع سلسلة كاملة من خدمات البنوك المحلية للهنود غير المقيمين في بلد إقامتهم. وأخيراً، هو أنه بالإضافة إلى المنتجات الأساسية المرتبطة بالهند مثل الودائع والتحويلات، مكَّنت ودائع المفرق البنوكَ من الاستمداد من فرص أخرى. وعلى سبيل المثال، فالكثير من المهاجرين من الشرق الأوسط الذين عادوا إلى الهند لبضعة أسابيع في مدة واحدة قالوا: إنهم كانوا ينظرون في بناء بيوت أو في إنشائها، ولكنهم وجدوا من الصعب تحديد سماسرة أو بنائين أصحاب سمعة حسنة في الزمن القصير الذي أمضوه في الهند. وكانت هذه الفرص صالحة للانتفاع بها بشكل أسهل بكثير لو كانت البنوك تضم هؤلاء الأفراد من قبلُ زبائنَ لديها.

وقد أخبرتني لاليتا غوبتي، مديرة الإدارة المنتدبة لمصرف آي سي آي سي آي، أنه كانت هناك مؤشرات عدة أشارت إلى نجاح خطة البنك التوسعية. كانوا يسجلون كثيرين

مـن الزبائن في كندا، وعدداً متزايداً من زبائنهم كانوا غير هنود. أي أن فكرة استخدام الشتـات رأس جسر لدخول سـوق جديد قد برهن علـى أنها فكرة قابلـة للحياة. وقالت غوبتـي: "كنت أعـرف أننا كنا نملك قوة الجذب حين عرف ضابـط الهجرة في فانكوفر شعار مصرفي آي سي آي سي آي من إعلانات الإنترانيت التي كنا قد بدأنا نعلنها في كندا مع مجموعة آي إن جي دايركت، وهي الذراع الإنترنتية للبنك الهولندي العالمي".

جوهرة في تاج بيرة كوبرا

تمامـاً مثلما يمثل مصرف آي سي آي سي آي القطاع الخاص الهندي، وهو يبادر إلى الانتفـاع بالشتات، بدأ الشتات أيضاً يعطي انتباهاً نشيطاً للهند. ونتيجة لهذه الثنائيات، وعنـد نقطة معينة كان "الهندي غير المطلـوب" قد تحول إلى هندي غير مقيم مرغوب. وقصة كاران بيليموريا وشركته، بيرة كوبرا، توضح هذا التحول.

كان بيليموريا جزءاً من موجة المهاجرين الهنود ذوي الياقات البيضاء التي جاءت إلى المملكـة المتحدة في السبعينيات من 1970 ومطالع الثمانينيات من 1980. ودرس المحاسبة القانونية والقانون. وقد أخبرني فقال: "في حالتي، كنت أعرف من أيام دراستي الثانوية أنـه سيكون علـي أن أذهب إلى الخارج للمساعدة على تقدم نفسي. تلك هي الكيفية التي تتقـدم فيها في الهند. والدي تخرج ضابطـاً في ساندهيرست، وكل من والدي ووالدي قد درس في المملكة المتحدة، وهكذا كان يفترض أنني سوف أنتهي إلى لندن"[45].

في أثناء حياته في لندن، لاحظ بيليموريا أنه في كل مرة كان يطلب فيها الجعة لتنسجم مع الطعـام الهندي الكثير البهارات، كان يجد أن أنواع الجعة المعتقة المتوافرة في المطعم أو جعـة البيـت تسبب له اضطراباً معديـاً مزعجاً. وكان البديل للجعـة المعتقة هو الجعة الخفيفة اللون، المِزْر الحقيقي، ولكن ذلك كان مرافقاً بائساً على نحو مساوٍ بالنسبة إلى الطعـام الهنـدي. ما الذي كان يستطيع بيليموريا أن يفعله ليقـدم خياراً أفضل لمستهلكي الطعـام الهنـدي في بريطانيا؟ المِزْر هي جعة مصنوعة مع خمـيرة تخمير علوية، توصف عادة بأنها "صحية، وقوية، وبنكهة الفواكه". الجعة المعتقة، مصنوعة من خميرة تخمير سفليـة، وهي توصف بشكل مميز بأنها "ناعمة، وأنيقة، وهشة، ونظيفة". أراد بيليموريا

أن يطور جعة هجينة، وهي جعة معتقة تصير ناعمة بما فيه الكفاية لترافق الطعام الهندي، ولكنها أيضاً تغري الشاربين للمِزّر الإنجليزي. وكانت الفكرة هي بيع هذا المنتج إلى المطاعم الهندية في المملكة المتحدة، وهي مطاعم ازدهرت وزادت أعدادها من 3,000 مطعم في العام 1980 إلى 8,500 مطعم في العام 2001 [46].

وموهبة الاكتشاف بالمصادفة ساقت بيليموريا إلى سيد التخمير الرئيس في الهند، المتعلم في براغ الدكتور كاريابا، الذي سبق له أن عمل لدى مصانع مايسور للجعة. بيليموريا ودكتور كاريابا تعاونا لإنتاج جعة هندية من الطراز الأول، وليجعلاها في متناول الجميع في أي مكان في العالم. وبدأ هذا التعاون في العام 1990، وهو العام الذي كان قبل انطلاق المرحلة الأخيرة من الإصلاح. ولكن العوائق البيروقراطية المحلية كانت متعددة الطبقات. وعلى سبيل المثال، فإن سوق الجعة في الهند منظم تنظيماً كثيفاً. وأكثر من 50% من سعر البيع بالمفرق يعلّل بالضرائب المحلية، وبالموزعين غير الأكفياء المملوكين للحكومة الذين يسيطرون في الغالب على توزيع الخمور. وزيادة على ذلك، فالخمور، بوصفها بنداً على ما يسمى قائمة الدولة، فهي تخضع للدولة لا للتنظيمات القومية، والقواعد الغريبة غير المعتادة على مستوى الدولة تستبعد في الغالب مبيعات الجعة في أماكن أخرى. وفي كارناتاكا، الولاية الجنوبية التي بدأ فيها بيليموريا تخمير جعة الكوبرا، أمرت تنظيمات الولاية بأن الجعة يجب أن تختم بختم يقول: "ليست للبيع في كارناتاكا"، إذا كانت تغادر حدود الولاية. وكان كل إنتاج جعة كوبرا يقصد منه التصدير إلى خارج الهند. وكانت جعة كوبرا قد أشارت مسبقاً إلى هذا القصد. وبدا أن من غير الضروري وجود رقعة ملصقة أخرى تمنع البيع في كارناتاكا. ولكن منظم الولاية اتبع، على كل حال، حرفية القانون لا روح القانون ورفض أن يتزحزح بخصوص الحاجة إلى أختام متعددة. وأوقفوا إصدار التراخيص اللازمة للإنتاج كي يبدأ بعد ذلك. وكان على بيليموريا أن يتزلف إلى مفوض الضريبة المحلية في بنغالور ليكسب الفرصة ليشرح له موقفه وليؤمن أخيراً استثناء من القاعدة. إن حواجز صغيرة مثل ذلك جعلت أول خمس سنوات صعبة جداً لشركة الجعة الناشئة.

وطوال سنوات عديدة كانت جعة كوبرا تصدر إلى خارج بنغالور، ومعظمها إلى المملكة المتحدة، ولم تبع الشركة زجاجة واحدة في الهند. عالم الفم ساعد الجعة على اكتساب القدرة على الجذب في المملكة المتحدة، وأقلعت المبيعات وحلَّقت في العام 1996. حينئذ وصل بيليموريا إلى نقطة تحول. "قررت أنا أن أنقل المصنع من بنغالور إلى بيدفورد في المملكة المتحدة. وكان القرار واحداً من أصعب القرارات التي سبق لي مطلقاً أن اتخذتها. ولكن جودة وثبات المنتج من بنغالور كانا غير جيدين تماماً بما فيه الكفاية. وحين أنظر إلى الخلف أجد أن القرار كان ممتازاً. فالزبائن لا يهتمون على ما يبدو بأن الجعة قد صنعت في المملكة المتحدة، برغم أن أصولها كانت هندية. كان المذاق هو كل ما ركز الزبائن رغبتهم فيه".

وتابع بيليموريا يقص قصته فقال: "حافظت على نظرة قريبة على السوق الهندية. وبحلول العام 2002 رأيت أن اللَّبرَلة قد زادت معدل الخطى مرة أخرى، وبدأت تصدير الكوبرا ثانية، وفي هذه المرة في الاتجاه المعاكس، من المملكة المتحدة إلى الهند. وهكذا، فالكوبرا التي ولدت في بنغالور، وصنعت في بيدفورد، تعود ثانية إلى بنغالور". وفي العام 2005 استأنفت كوبرا أخيراً إنتاجها في الهند، إضافة إلى عملياتها في المملكة المتحدة، وفي كل أوروبة، بعد الاشتراك مع مصنع قرب نيودلهي وبعد إعداد المصنع لمزيد من الاستعمال. وكما اعترف بيليموريا في الحال، كان ذلك مقامرة. إن استهلاك الجعة يرتفع بنفس معدل ارتفاع مجمل الدخل المحلي للهند، برغم أنه من الممكن بسهولة أن ينمو نمواً أسرع كذلك. بيليموريا مفعم بالأمل بأن سوق الجعة الهندي سوف ينمو مثلما نما في الصين، ويغذيه في نموه التخلص من التنظيمات. والصين الآن تجاوزت الولايات المتحدة بوصفها أضخم سوق للجعة في العالم. ومعظم مصانع البيرة في العالم تراقب السوق وهو ينفجر، مستحثاً بيليموريا ليقول: "كل مصنع بيرة كبير في العالم سيحب أن يشارك معنا. الهند هي الجوهرة في تاج جعة كوبرا"، راسماً بقوله ذلك موازياً للقيمة التي وضعتها الإمبراطورية البريطانية على مستعمرتها الهند.

وفي العام 2003 تجاوزت مبيعات جعة كوبرا 81 مليون دولار، جاء نصفها من 5,600 مطعم هندي في المملكة المتحدة[47]. وفي العام 2004 دشنت كوبرا صفقة مع الخطوط

الجوية فيرجين أتلانتيك لتبيع جعة كوبرا على طريق لندن دلهي، لتعطي "الركاب تذوقاً حقيقياً للهند"[48]. ومنذ ذلك الوقت انتشرت الكوبرا في كل أنحاء العالم. ويتركز الإنتاج في خمسة مواقع: بلجيكا، والأراضي الواطئة، وبولندا، بالإضافة إلى الهند والمملكة المتحدة، وتصدر الجعة إلى خمسين بلداً تقريباً. وتُعدّ لندن، ومومباي، وكيب تاون، ومدينة نيويورك هي موطن أقطاب الرحى الإقليمية، ومبيعات المفرق لجعة كوبرا تبلغ الآن أكثر من 100 مليون جنيه إسترليني.

وطورت جعة كوبرا ولاء للعلامة التجارية مثيراً للاهتمام. ضباط من الجيش البريطاني لهم خبرات في آسيا أقسموا إن العلامة التجارية كانت موجودة لمدة قريبة من قرن، لقد كانت مألوفة جداً لهم بشكل أو بآخر، وذلك برغم أنها لا تكاد تصل إلى خمسة عشر عاماً من وجودها. والمستهلكون في الهند بدؤوا بالتفكير فيها بوصفها مستوردة من بريطانيا ولكنهم لم يتجنبوها بوصفها أجنبية؛ لأنها كانت تنتج من قبل واحد منهم.

وإلى جانب إنتاج جعة من مرتبة عالمية، يريد بيليموريا أن يتصرف بصفته جسراً بين المملكة المتحدة والهند. وبروز بيليموريا المتزايد في الحياة العامة أدى إلى تعيينه رئيساً لمجلس الإدارة في المملكة المتحدة لشبكة الشراكة الهندية البريطانية، وهي منظمة أنشئت في 1993 حين اعترفت الحكومة البريطانية بالحاجة إلى علاقة اقتصادية ثنائية مع الهند. وقد رافق بيليموريا رئيسَ الوزراء طوني بلير وبعثةً من رجال الأعمال القادة الكبار من المملكة المتحدة في رحلة إلى الصين والهند في شهر أيلول/ سبتمبر في العام 2005. وفي شهر كانون الثاني/يناير من ذلك العام كان لي أنا الفرصة لمراقبة بيليموريا، وهو يعمل في غداء في نيودلهي نظمه وزير شؤون الهنود فيما وراء البحار بعد تعيينه وزيراً بقليل وهو جاغديش تايتلر. وكان الاجتماع قد عقد لاستدراج مدخلات من حفنة من أعضاء الشتات بخصوص النظام الأساسي لوزارة تايتلر المشكّلة حديثاً. وكان بيليموريا بائعاً متحمساً لكل من بلد منشئه وبلده التي تبناها، وكان يبيع كل واحد منهما للآخر، وهو يشير إلى أن ميزانية المستشار البريطاني في العام 2004 ذكرت الهند لأول مرة، ولم تذكرها مرة واحدة فقط بل مرتين. في العقود الحديثة لم تكن الحماسة للعلاقات

الاقتصاديـة من مثل هذا النوع أعلى مما هي عليه أبـداً. ويبدو الأمر كأن الهند مفتوحة للأعمـال، وهي تتحسس طريقها عبر وكلاء متنوعـين إلى شتاتها. وربما يكون الجو الآن مثـل الجو في الصـين في مطالع الثمانينيـات بخصوص محاولة كسـب ود رأس المال من الشتات.

لم يبـقَ تايتلـر في منصبه الوزاري لمدة طويلة قبل أن يطـرد بسبب تورطه المزعوم في أعمـال الشغـب الطائفية التي وقعـت في الهند في أثناء العـام 1984. ولكن وزارته بقيت. وكـون وزارة شـؤون الهنود فيمـا وراء البحار موجـودة مطلقاً هو شهـادة لحماسة الهند المكتشفـة حديثاً من أجل شتاتها. وفي هذا الوقت قُدِّم بيليموريا لمجلس اللوردات في شهر تموز/يوليـو مـن العام 2006 وصار لورداً رسمياً في وقـت لاحق من ذلك العام باسم لورد بيليموريـا لتشيلسي، وهي علامـة على صعوده المتغلغل في المجتمع البريطاني ورمز لنضج الهنود البريطانيين.